مجلة الدراسات الفقهية والقضائية • مجلد: 05، عدد: 01 (2019م) • ص ص63 – 82
EISSN 2588-2481 - ISSN 2477-9806

خصائص المدرسة المالكية الجزائرية

Characteristics of the Algerian Maliki school

بقلم

د. نبيل زياني*

جامعة الطارف ـ الجزائر

ziani111@yahoo.fr

ملخص

يبحث هذا المقال في قضية الجانب الإقليمي داخل المذهب الفقهي، حيث نعيش في بلد يشتهر فيه مختصر خليل وشروحه للدردير والخرشي وعليش..، وهي شروحات تمثل المدرسة الفقهية المالكية المصرية التي تختلف في قواعدها اختلافا واضحا عن المدرسة المالكية المغاربية ومنها الجزائرية. يعالج هذا البحث خصائص المدرسة المالكية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: المالكية؛ المغاربية؛ الفقه؛ الجزائر؛ المدارس الفقهية.

Abstract

This article discusses the issue of the regional aspect within the jurisprudence school, where we live in a country in which "mukhtasir khalil washuruhuh lildaradir", alkharshii and Allish are famous. These explanations represent the Egyptian Maliki school of jurisprudence, which clearly differs in its rules from the Maghreb Maliki school, including the Algerian ones. This paper deals with the characteristics of the Algerian Maliki school.

Keywords:

Malikism; Magharebia; Fiqh; Algeria; Schools of Jurisprudence.

* المؤلف المراسل.

المنارة للاستشارات

مقدمة

إن الحديث عن مناهج وخصائص الفقهاء المالكية له أهمية كبيرة في فهم آرائهم الأصولية والفرعية، والقدرة على الترجيح بينها عند التعارض، وتقريب مؤلفاتهم من الباحثين وعامة القراء، ومن الموضوعات المنهجية المهمة في هذا الشأن ما يُعرف بإقليمية المذهب، حيث نعيش في بلد يشتهر فيه مختصر خليل وشروحه للدردير والخرشي وعليش..، وهي شروحات تمثل المدرسة الفقهية المالكة المصرية التي تختلف في قواعدها اختلافا واضحا عن المدرسة المالكية المغاربية ومنها الجزائرية، والممارس لكتب الخلاف داخل المذهب يجد الحديث كثيرا عن قواعد الترجيح بين أقاليم المذهب المالكي عند التعارض، من هنا تبرز الحاجة لمعرفة هذه الأقاليم، قال الدكتور علي حسن عبد القادر: "إن دراسة الفقه الإقليمي وإعادة النظر في فقه المناطق موضوع لم يتناوله الباحثون الفقهاء فيما أعلم وهو جدير بالنظر والبحث[1]"، فما هي أقاليم المذهب المالكي، وما هي خصائصها؟ وماذا عن المدرسة المغاربية وخصائصها ومقارنتها بالمدارس الأخرى وبالخصوص المدرسة المصرية؟ ومن يمثلها في من الفقهاء الجزائريين تحديدا؟ وما هي كتبهم؟ وبماذا تميزت؟ .. وغيرها من الأسئلة التي يجيب عنها هذا المقال الرامي إلى خدمة هذا الجانب المهم جدا من المذهب المالكي في بلادنا.

أولا : نشأة وتطور المدرسة المالكية الجزائرية:

نشأت المدرسة الفقهية المالكية الجزائرية ضمن المدرسة المغاربية بشمال إفريقية في وقت مبكر جدا، حيث حل بهذه المنطقة نخبة من أبرز تلاميذ مالك، كعلي بن زياد (ت183هـ)، والبهلول بن راشد(ت183هـ)، وعبد الرحيم بن أشرس، الذين نقلوا إلينا الموطأ وفقه الإمام مالك، إلا أن أهل إفريقية ظل منهم بقايا من أهل السنن والمذهب الحنفي، حتى تولى عليهم المعز بن باديس سنة 407 هـ فجمع أهلها على المذهب المالكي[2]، فثبت وانتشر حتى بلغ الأندلس شمالا وبلاد شنقيط جنوبا، وسخر الله له من الولاة والخلفاء من كانوا سببا في انتشاره[3]، ومن العلماء من كانوا سببا في تثبيته حينا وتطويره حينا آخر، وقد صور لنا العلامة محمد الطاهر بن عاشور منحنى المذهب المالكي الذي مر بثلاثة تطورات أساسية بعد

المنارة للاستشارات

مرحلة النشأة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري:

. من نصف القرن الثاني إلى نصف القرن الرابع، مرحلة الاستقرار، وقد تمت فيها رواية آثار مالك ونقل أصوله.

. من نصف القرن الرابع حتى مطلع القرن الخامس: سماها مرحلة تتابع تولد المذهب بالتفريع على الأصول والاجتهاد المقيد.

. من مطلع القرن الخامس حتى مطلع القرن السادس: مرحلة الترجيح بين الاجتهادات ووضع مختصرات[4] تكتفي بالثابت من الأقوال[5]، وأضاف الدكتور محمد إبراهيم علي:

. من مطلع القرن السابع حتى يومنا هذا: مرحلة استقرار أخرى عرفت بانتشار الشروح والحواشي والتعليلات، وتميزت بانصهار آراء المدارس الفقهية المالكية في بوتقة واحدة[6].

هذا من حيث المسار العلمي، أما من حيث المسار الجغرافي فقد عرف المذهب المالكي مدا وزجرا في معظم بلدان العالم الإسلامي إلى أن استقر اليوم كمذهب رسمي وسائد في نحو نصف الدول العربية وهي الجزائر وتونس وليبيا والمغرب وموريطانيا والسودان والبحرين والإمارات وقطر والكويت، ويتقاسم انتشاره مع المذاهب الأخرى في بقية الدول بدرجات متفاوتة كمصر حيث يغلب في الصعيد، وبدرجة أقل في فلسطين والعراق، واقل منه في الحجاز، كما ينتشر بوضوح في بعض الدول الإفريقية مثل السنغال ومالي ونيجيريا والنيجر، ولا شك أن هذا الاعتناق الواسع للمذهب المالكي لدليل واضح على قوة أصوله من جهة، ومرونته ومناسبته لكل زمان ومكان من جهة أخرى.

ثانيا : الخصائص العامة للمذهب المالكي:

يختص المذهب المالكي وأعلامه عن بقية المذاهب السنية الثلاثة بجملة من الخصائص التي لفتت أنظار العلماء وكانت مهوى لأفئدتهم وأقلامهم ونالت حضها الوافر من بحوثهم وتآليفهم، كانت هذه الخصائص في أصول المذهب وفروعه وطريقة علمائه في عرضه وخدمته، ومن هذه الخصائص ما يأتي:

المنارة للاستشارات

1. أصول المذهب، وهي على الترتيب: القرآن، السنة، الإجماع، إجماع أهل المدينة (وهذا أشهر ما انفرد به مالك عن الأئمة الثلاثة وتوسع في تطبيقه)، القياس، قول الصحابي، المصلحة المرسلة، العرف والعادات، سد الذرائع، الاستصحاب، الاستحسان، ورأى بعض الفقهاء أن مالك انفرد أيضا باعتبار المصالح المرسلة وسد الذرائع، وأضاف آخرون لأصوله التي انفرد بها أصل الخروج من الخلاف (بمراعاة وإعمال دليل المخالف)[7].

2. للمالكية ترتيب شبه إلزامي لفتاوى أئمتهم المعتمدة في المذهب وهو:

. قول مالك في الموطأ.

. قوله في المدونة .

. قول ابن القاسم في المدونة .

. قول ابن القاسم في غير المدونة .

. قول غير ابن القاسم في المدونة .

. قول غيره في غير المدونة.

3. واختص المالكية بمصطلحات ومعاني لا تكاد تجدها عند غيرهم، منها:

* الكتاب: ويقصدون به المدونة.

* الأمهات: وهي المدونة والمستخرجة[8] والموازية[9] والواضحة[10].

* الفقهاء السبعة: وهم سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، خارجة بن زيد بن ثابت، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، سليمان بن يسار، والسابع سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل: سالم بن عبد الله، وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن.

* المدنيون: من أصحاب مالك وهم: ابن كنانة، ابن الماجشون، مطرف، ابن نافع، ابن مسلمة.

* المصريون: وهم: ابن القاسم، أشهب، ابن وهب، أصبغ بن الفرج.

المنارة للاستشارات

* المغاربة: وهم ابن أبي زيد القيرواني، ابن القابسي، ابن اللباد، الباجي، اللخمي ابن محرز، ابن عبد البر، ابن رشد، ابن العربي، ابن شبلون، القاضي سند، المخزومي، وابن شعبان.

* القرينان: وهما: مالك وسفيان بن عيينة، وتقال عن أشهب وابن نافع.

* الأخوان: مطرف وابن الماجشون، وسميا بذلك لكثرة اتفاقهما.

* المحمدون: وهم: ابن سحنون وابن عبدوس وابن عبد الحكم وابن المواز، قيل: لم يجتمع في زمن من علماء المالكية مثلهم علما وجلالة.

* الشيخ: وهو ابن أبي زيد القيرواني.

* الشيخان: وهما ابن أبي زيد وأبو الحسن علي القابسي.

* الاتفاق: لعلماء المذهب.

* الإجماع: لعامة العلماء من كل المذاهب.

* والجمهور: للأئمة الأربعة.

* المتقدمون والمتأخرون: المتقدمون من قبل ابن أبي زيد القيرواني(ت 386 ه) والمتأخرون من بعده.

* الماجريات: أي ما جرى عليه العمل[11].

4 . يرجح المالكية ما جرى به العمل ولو كان ضعيفا على ما ليس عليه العمل ولو كان راجحا، وذلك بشروط، منها: معرفة من أجرى ذلك العمل من الأئمة المقتدى بهم مجرى الترجيح، وسبب ذلك، يريدون بذلك سدا لبعض الذرائع[12].

5 . ترتيب الأبواب الفقهية في كتبهم على نسق خاص، وإيجاد المناسبة العلمية بين تلك الأبواب، ومن ذلك ترتيبهم للأبواب الكبرى للفقه على النحو الآتي:

العبادات . النكاح . البيوع . الأقضية.

يقدمون العبادات لأهميتها في حياة المسلم وآخرته، ثم ينتقلون إلى باب النكاح باعتباره قُربة يُتعبد بها قبل أن يكون متعة دنيوية، وهو نوع من جهاد

المنارة للاستشارات

النفس، ولهذا يختمون باب العبادات بأحكام الجهاد، ثم يأتي بعد النكاح باب البيوع، والمناسبة بينهما أن كليهما عقد يقوم به الدين والدنيا، ثم باب الأقضية، وذلك لأن كلا من النكاح والبيوع مما يكثر فيهما تنازع الناس، فوجب بيان ما يفصل في تلك النزاعات.

في حين رتب أصحاب المذاهب الأخرى هذه الأبواب على طرق مختلفة، ومنهم من تكلف وتمحَّن في إيجاد المناسبة بين تلك الطرق[13].

6 . يتميز علماء المالكية بتمحيص الفتاوى والتأكد من نسبتها للأئمة، فهم يوجبون النهل من الكتب المعتمدة، خلافا لما يشاع عنهم من التقليد وضيق الأفق العلمي، قال حسن بن محمد المشاط: "ينبغي أن يحذر مما وقع في زماننا من تشاغل بعض الفقهاء بالفتوى من الكتب الغريبة التي ليست فيها رواية المفتي عن المجتهد بالسند الصحيح، ولا قام مقام ذلك شهرة عظيمة تمنع من التصحيف والتحريف، وبلغ بعضهم في التساهل حتى صار إذا وجد حاشية في كتاب أفتى بها، وهذا عدم دين، وبعد شديد عن القواعد"[14]، وبلغ بهم الحرص على ذلك مبلغا عظيما، وكان الشاطبي لا يأخذ الفقه إلا من كتب الأقدمين ويمنع النظر في الكتب المتأخرة[15].

7 . الاعتناء بالتأليف في فقه النوازل، ومن ذلك كتاب مذاهب الحكام في نوازل الأحكام للقاضي عياض بن موسى اليحصبي(ت 544هـ)، والمفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام للقاضي أبي الوليد هشام بن عبد الله(ت 606هـ) .

هذه بعض الخصائص العامة للمذهب المالكي في الأصول والفروع، وهي الخصائص التي امتدحها الموافق والمخالف، وجعلت العلماء يُقبلون على دراسة هذا المذهب وخدمته من كل حدب وصوب، قال ابن تيمية الحنبلي عن المذهب المالكي: "أصح مذاهب أهل المدائن الإسلامية شرقا وغربا في الأصول والفروع"[16]، وهذه شروح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني تناهز المائة، وكذلك شروح مختصر خليل، ولا غرابة أن رأينا بعض العلماء غير المالكية يشاركون في خدمة كتب

المنارة للاستشارات

المذهب شرحا وتخريجا وتعليقا لنيل الشرف بذلك، ومن ذلك شرح عضد الدين الإيجي الشافعي(ت756هـ) لمختصر ابن الحاجب المالكي(ت646هـ)، وهو من أشهر الكتب وأحسنها على الإطلاق.

ثالثا : المدرسة المالكية المغاربية وخصائصها:

تطلق المدارس على المذاهب في الغالب، لكن المقصود بها هنا المناهج الفكرية للفقهاء داخل المذهب الواحد، وتسمى أيضا الطرق، فيقال مثلا: مدرسة الشاطبي أو طريقة الشاطبي، أو مدرسة التونسيين أو طريقتهم، وبعد تتبع الاختلافات الواقعة بين عموم المالكية أمكن إيعاز ذلك إلى أربعة مناهج فكرية سُميت فيما بعد بالمدارس وهي: المدرسة المدنية، المدرسة المصرية، المدرسة العراقية، المدرسة المغاربية، وقبل التعريف بالمدرسة المغاربية وذكر خصائصها ينبغي التعريف بالمدارس الأخرى ولو بإيجاز.

1. المدرسة المدنية: نسبة للمدينة المنورة: وهي المدرسة الأم، والنبع الذي تدفق منه المذهب، بحكم أن الإمام مالك نشأ في المدينة ونشر علمه فيها، يتصدر أعلام هذه المدرسة عبد الملك بن الماجشون(ت214هـ) ومطرف بن عبد الله(ت220هـ)، وتميزت بالاعتماد على القرآن والسنة المرفوعة دون النظر إلى كون تلك السنة معمول بها أو لا، تضاءلت هذه المدرسة بمرور الزمن حتى فُقدت تماما بسيطرة العبيديين[17] الشيعة على المدينة خلال القرن الرابع هجري، ثم عاد لها نشاطها عن طريق الإمام ابن فرحون(ت799هـ) نهاية القرن الثامن.

وللتمثيل على ما انفردت به هذه المدرسة عن المدارس الأخرى: مسألة القبض الذي تلتزم به، في حين لا تقول به المدرسة المصرية، ومسألة إتحاد المطالع في رؤية الهلال حيث يقول المالكية المدنيون أن لكل بلد رؤيته، ويقول المصريون باتحاد المطالع، ومسألة تأمين الإمام في الصلاة الجهرية مع المأمومين، يقول المدنيون يؤمن سرا، ويقول المصريون والعراقيون وبعض المغاربة لا يؤمن سرا ولا جهرا.

2 . المدرسة المصرية: تأسست بعد المدرسة المدنية واحتلت مركز قيادة

المنارة للاستشارات

المدارس الأخرى بسبب استقرار ابن القاسم(ت191ه) في مصر، وهو صاحب المكانة الأولى في المذهب بعد وفاة مؤسسه، وصاحب الإسناد العالي، اشتغل بالتأليف والرواية عن مالك مباشرة، ومن أعلام هذه المدرسة عبد الله بن وهب(197ه) وأشهب بن عبد العزيز(203ه) وأصبغ بن الفرج(225ه)، تنتهج المدرسة المصرية منهج السنة الأثرية، أي: مسايرة ما عليه عمل أهل المدينة. عانت هذه المدرسة من بعض الفتن التي تسببت في هروب كثير من أعلامها وسجنهم واختفائهم، كفتنة خلق القرآن ومضايقات العبيديين، لكن بعد زوال هذه الفتن عاد أعلامها للظهور والبروز، وما زالت هذه المدرسة ذائعة ونشطة إلى اليوم.

قلت: تميزت بتقديم عمل أهل المدينة على حديث الآحاد ولو كان صحيحا، وللتمثيل على آثار هذه القاعدة: مسألة بيع خيار المجلس، حيث لا يقول به المصريون مع أن الحديث ثابت فيه، ويقولون بالسدل بدلا من القبض، ويقولون بنجاسة الماء القليل الذي سقطت فيه نجاسة قليلة لم تغير لونه أو ريحه أو طعمه، في حين قال المدنيون والعراقيون بطهارته لحديث: "الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه"[18].

3 . المدرسة العراقية: ظهرت بالبصرة على يد بعض تلاميذ مالك كعبد الرحمن بن مهدي(ت198ه) وعبد الله بن مسلمة القعنبي(ت222ه)، ثم انتشر المذهب في كل العراق وبلغ ذروته في بغداد خلال القرن الثالث ومنتصف القرن الرابع الهجري بسبب تبني العباسيين للمذهب المالكي ونشرهم للمناظرة والتدريس، وتفتح المالكية العراقيين على المذاهب الأخرى مما زاد من إقبال الناس عليهم، تميزت هذه المدرسة بالتقعيد والتخريج، أي: القياس على مسائل المدونة، ويعبرون عنه أيضا بالنظائر والتنزيل والاعتبار، وتميزت بالفقه الافتراضي(الاحتمالي) محاكاة لفقه الأحناف.

آلت هذه المدرسة إلى السقوط بعد موت أعلامها وعدم وجود من يخلفهم، فتولى الأحناف والشافعية القضاء، ورجع بعض المالكية عن مذهبهم إلى مذاهب أخرى[19]، فانقطعت المدرسة تماما في منتصف القرن الخامس هجري.

المنارة للاستشارات

ومن الأمثلة على اختلافهم عن المدارس الأخرى: اختلافهم في مسألة سلس البول، حيث قالوا لا ينقض الوضوء مهما يكن، بينما هو مرتبط بكثرة أو قلة ملازمته للشخص عند باقي المالكية، ومسألة صلاة القصر للمسافر، فهي عند العراقيين للتخيير، وعند غيرهم سنة، ومسألة الإطعام مع القضاء لمن فاته قضاء رمضان حتى دخل رمضان جديد، قال العراقيون يقضي فقط، وقال باقي المالكية يقضي ويطعم.

4 . المدرسة المغاربية:

لقد غمر المذهب المالكي غرب الدولة الإسلامية في صدر الإسلام بواسطة تلاميذ الإمام مالك الذين وفدوا إلى شمال إفريقيا بالعشرات، أبرزهم علي بن زياد(ت183ه) والبهلول بن راشد(ت183ه) وعبد الله بن غانم(ت190ه)، وإذا ذُكر في المذهب المالكي المغاربة قُصد بهم علماء شمال إفريقيا من القيروان بتونس إلى فاس بالمغرب، بالإضافة إلى بلاد الأندلس وبلاد شنقيط، وقد عرفت هذه المدرسة ازدهارا كبيرا وذاع صيتها حتى اعتبرت "مبدأ محا ما قبله"[20]، ولم يُسَمَّ أحد بمالك بعد موت مالك بن أنس إلا ابن أبي زيد القيرواني، سموه "مالك الصغير" لقوة حفظه للمذهب ومطابقة فتواه لأصوله وفروعه.

ولئن عَرفت المدارس الفقهية المالكية الأخرى فتورا وانقطاعا، فإن المدرسة المغاربية لم تعرف ذلك، مرت بها أحداث خطيرة أثرت على نشاطها العلمي قوة وضعفا لكنها لم تؤثر على وجودها ولم تغب شمسها عن شمال إفريقيا منذ أن سطعت.

عرفت المدرسة المالكية المغاربية في بدايتها ازدهارا وتألقا، وسرعان ما بلغت قمتها عند الإمام سحنون (عبد السلام بن سعيد التنوخي، ت240ه) صاحب المدونة، حتى تبنت المذهب دولة بني الأغلب[21] رسميا، ولما خلفتها دولة العبيديين عَرف المذهب المالكي بعض الانحسار بسبب فرض المذهب الجعفري ومنع ما عداه من المذاهب، ورغم شدة هذا المنع الذي وصل إلى سجن وقتل الفقهاء المالكية؛ إلا أنهم حاولوا الحفاظ على مذهبهم بطرق خفية كتدريسه والفتوى به

المنارة للاستشارات

سرا، ولجوئهم إلى تدريس التصوف "كمحاولة لتربية الناس على الصبر والابتلاء حتى لا ينزلقوا في كفة الشيعة"[22]، وكان نتيجة لذلك عودة المذهب إلى السطوع بقوة على يد ابن أبي زيد القيرواني(ت386 ه) بعد زوال حكم العبيديين مباشرة، مع التنبيه إلى أن تأثير العبيديين على المذهب كان محصورا في منطقة تونس دون غيرها من المناطق الأخرى التي بقي فيها المذهب المالكي قويا مهيمنا على غيره من المذاهب.

وكما لم تنجح محاولة اقتلاع المذهب المالكي من قلوب الناس في تونس، لم تنجح محاولة اقتلاعه من قلوبهم في المغرب الأقصى، أين حاول الموحدون[23] إحلال المذهب الظاهري بدلا منه، بلغ بهم الأمر إلى إحراق كتب المالكية علنا، والتوعد بالعقوبة على من يقرؤها بدعوى أنها كتب رأي، وهذه الطريقة لم تزد الناس إلا إصرارا على التمسك بالمذهب المالكي، فقابلوا التحدي بالتحدي، وحافظ المذهب على رواجه في قلب هذه الدولة، وما إن سقطت حتى كثرت المدارس المالكية وعمرت الديار وتخرج العلماء والفحول أكثر من أي وقت مضى.

. **خصائص وسمات المدرسة المغاربية**:

قبل الحديث عن خصائص وسمات المدرسة المغاربية أجد من المهم التطرق إلى أسباب اختلاف المدارس الفقهية المالكية، وذلك راجع إلى سببين رئيسيين:

أولا: اختلاف تأثر تلاميذ مالك بجانب من جوانب شخصيته العلمية، حيث برع مالك في الحديث والفقه، فكان من تلاميذه من تأثر بجانب الحديث فيه فراح يقدم الأحاديث الصحيحة المرفوعة على الأحاديث التي أيدها العمل، ومنهم من تأثر بجانب الفقه فيه فراح يقدم الأحاديث التي أيدها العمل على الأحاديث المرفوعة، من أصحاب المنهج الأول ابن الماجشون وابن وهب وابن حبيب، ومن أصحاب المنهج الثاني عبد الرحمن بن القاسم وهو أجل من أخذ عنه، قال يحي بن يحي الليثي (ت367ه): "نهاني ابن القاسم على اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن غلبة الرأي وكثرته وأمرني بالاتباع وأصاب"[24]، وهذا تلخيص جيد لذلك الاختلاف بين تلاميذ مالك.

المنارة للاستشارات

ثانيا: اختلاف البيئة الثقافية للمالكية، حيث إن المذهب انتشر في بيئات ثقافية متنوعة، فكان لأهل كل بيئة من الأسباب ما جعلهم يميلون إلى وجهة علمية معينة، وللتمثيل على ذلك نتحدث عن الفرق بين المدرسة المغاربية والمدرسة العراقية.

علل ابن خلدون الاختلاف بين المغاربة والعراقيين بأن المغاربة كانت تغلب عليهم البداوة، ولم يعانوا من الحضارة التي كانت لأهل العراق، فكانوا لأهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ثم إن هجرتهم العلمية التي كانت تبعا لهجرتهم إلى الحج لم تتجاوز الحجاز، فأخذوا عنهم وتأثروا بهم، وأهل الحجاز هم أهل سماع ونقل فقط، أما العراقيون فظلوا متأثرين بما ورثوه من العلوم العقلية عن الحضارات السابقة، وطريقتهم إعمال العقل في النصوص دون البحث عن مصدرها، ولهذا اعتمدوا على المدونة دون التعريج على تصحيح رواياتها ومناقشة ألفاظها، فجعلوها كالنصوص الثابتة وراحوا يقيسون عليها، أما المغاربة فقد عنوا كثيرا بتحقيق الروايات وتصحيحها وتتبع الآثار والتنبيه على اختلاف الكلام وما وقع من الاضطراب والترجيح[25]، قال د. علي حسن عبد القادر: "طريقة أهل العراق من المالكية أشبه بالحنفية من ناحية ما يغلب عليها من إجماع الرأي وإثبات الاستدلال، وطريقة أهل المغرب يغلب عليها مراعاة العمليات وتكييف الأحكام في النوازل"[26].

أما خصائص وسمات المدرسة المغاربية فمنها:

* تميزت المدرسة المغاربية بالانفتاح على المدارس المالكية الثلاثة: المدنية والمصرية والعراقية، فقد حاولت جمع مميزات تلك المدارس من الجمع بين الأثر والقياس والتقعيد والتفريع ومراعاة ما عليه العمل كما انتهجه ابن أبي زيد القيرواني في رسالته، وابن عبد البر في التمهيد، الذين عمقا ذلك المفهوم بجمعهما ما تناثر في أمهات دواوين فقه مدارس المالكية المختلفة والترجيح بين آرائها، وهذا ما عرف في كتب المتأخرين بـ"طريقة المغاربة" لأنها لم توجد عند غيرهم، قال يحيى بن يحي الليثي(ت367هـ) معبرا عن هذا المنهج: "اتباع ابن القاسم في رأيه رشد، واتباع ابن وهب في أثره هدى"[27]، يقصد الأخذ عن المدرسة

المنارة للاستشارات

المدنية والمصرية على السواء، وهذا ما يظهر جليا في كتب أبي الوليد الباجي(ت474هـ) ومحمد بن رشد(ت520هـ).

* وتميزت بالانفتاح على المذاهب الثلاثة الأخرى(الحنفية والشافعية والحنبلية) من خلال دراسة الفقه المقارن الذي يظهر جليا في كتب ابن عبد البر(ت463هـ) وأبي بكر بن العربي(ت543هـ) وابن رشد الحفيد(ت595هـ)، هذا الانفتاح الذي دفع عن المذهب المالكي تهمة التعصب والتضييق في المراجع[28].

* من خصائص المدرسة المغاربية: الاهتمام البارز بمراعاة العرف، حتى ظهرت كتب في الفتوى خاصة بأهل بعض البلدان دون غيرها، كما جُمعت مسائل خاصة بأهل الأندلس، نظمها الفيلالي السجلماسي في أرجوزة "العمل المطلق"، وجمع أحمد الرهوني التطواني نحو سبعين مسألة جَرَى بها العمل بتطوان.

* وتميزت المدرسة المغاربية بالاعتدال والوسطية ومراعاة مقاصد الشريعة كما نجده في كتب أبي إسحاق الشاطبي(ت 790هـ) وبالخصوص كتاب الموافقات..

* إذا اختلف العراقيون والمغاربة قدم المغاربة، لأنهم كانوا أكثر تمسكا برواية ابن القاسم، وهو أجل من روى عن مالك حيث صحبه أكثر من عشرين سنة، وكان أعلم الخلق بأقواله، قال النابغة الشنقيطي:

ورجحوا ما شهر المغاربة *** والشمس بالمشرق ليست غاربة[29].

وإذا اختلف المصريون والمدنيون قدم المصريون، لنفس السبب السابق، أي أن تقديم المدارس يكون على قدر اعتمادها على رواية ابن القاسم، وبالتالي يكون ترتيب المدارس الأربع: المصرية ثم المغاربية ثم العراقية ثم المدنية[30]، وللتنبيه فإن التقارب الشديد بين المدرستين المصرية والمغاربية أدى فيما بعهد إلى اندماجهما فأصبحتا مدرسة واحدة، وذلك بفعل معظم الفقهاء الجزائريين كما سنراه بعد قليل.

5 . أبرز الفقهاء المالكية في الجزائر وخصائصهم العلمية.

عرفت الجزائر ظهور كوكبة من الأعلام والفقهاء المالكية الذين ساهموا

المنارة للاستشارات

بشكل كبير في خدمة مذهبهم من خلال التأليف والتدريس وتنشيط الحياة العلمية في مختلف المدارس البجائية والتلمسانية وغيرها، أذكر عددا من هؤلاء العلماء وكتبهم، ثم أسجل ملاحظات خاصة عن جهودهم العلمية.

1. أبو الحسن علي بن عبد الرحمن اليفرني ثم الطنجي(ت734هـ)[31]، له تقييد على المدونة، سماه: طرر أبي الحسن الطنجي على المدونة.

2. المقري، محمد بن محمد بن أحمد التلمساني(ت758هـ)[32] له كتاب القواعد (1200 قاعدة فقهية مالكية مع مقارنتها بقواعد المذاهب الأخرى وهي طريقة جديدة في المذهب)، وله حاشية بديعة على مختصر ابن الحاجب.

3. أحمد بن إدريس البجائي(ت760هـ)[33]. له شرح البجائي على ابن الحاجب.

4. محمد بن أحمد الشريف التلمساني(ت771هـ)، من كتبه: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول.

5. ابن مرزوق التلمساني، محمد بن أحمد، الملقب بالجد(ت781هـ)[34]، من كتبه: إزالة الحاجب لفروع ابن الحاجب.

6. ابن مرزوق الحفيد محمد بن أحمد (ت842هـ)[35]، من كتبه: المنزع النبيل في شرح مختصر خليل(شرح ومقارنة وترجيح وتحقيق)، روضة الأريب ومنتهى أمل اللبيب في شرح التهذيب.

7. الزواوي القسنطيني، إبراهيم بن فايد (ت857هـ)[36]، له ثلاثة شروح على خليل وهي: تسهيل السبيل لمقتطف أزهار روض خليل، فيض النبيل، تحفة المشتاق في شرح مختصر خليل بن إسحاق.

8. المشذالي البجائي، محمد بن أبي القاسم (ت866هـ)[37]، له تكملة حاشية ابن مهدي عيسى الوانوغي على المدونة، ومختصر البيان لابن رشد(شرحه ورتبه على مسائل ابن الحاجب)، ومختصر أبحاث ابن عرفة.

9. عبد الرحمن بن محمد الثعالبي(ت876هـ)[38]، من كتبه: روضة الأنظار ونزهة الأخبار، شرح ابن الحاجب الفرعي، كتاب جامع الأمهات في أحكام

المنارة للاستشارات

العبادات.

10. الرصاع، محمد أبو عبد الله الأنصاري(ت894هـ)[39]، له كتاب: الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية.

11. أحمد بن يحي الونشريسي التلمساني ثم الفاسي(ت914هـ)[40]، من كتبه: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والمغرب، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، القصد الواجب في معرفة اصطلاح ابن الحاجب.

12. عبد الواحد بن أحمد الونشريسي(ت955هـ)[41]، من كتبه: النور المقتبس من قواعد مذهب مالك بن أنس(نظم رجز لقواعد مذهب مالك)، شرح الرسالة، شرح مختصر ابن الحاجب.

13. أحمد بن محمد المقري التلمساني(ت1041هـ)[42]، من مؤلفاته: حاشية المقري على خليل.

14. مصطفى بن عبد الله الرماصي(ت1136هـ)[43]، له حاشية الرماصي على شرح التتائي على مختصر خليل.

15. أحمد بن قاسم البوني(ت1139هـ)[44]، له فتح الإغلاق على وجوه مسائل مختصر خليل بن إسحاق، نظم فصول مختصر خليل.

16. عبد الرحمن بن عبد الله البكري الصديقي أبو زيد الجشتمي (ت1269هـ)، له: نظم أبي زيد الجشتمي في استدراكاته على خليل وابن عاصم.

* ملاحظات حول شخصية وجهود الفقهاء الجزائريين في خدمة المذهب المالكي:

* أجمعت كتب التراجم والسير التي ترجمت لهذه الكوكبة من النجوم على أنهم كانوا على درجة عالية جدا من العلم والأخلاق والتميز، كانوا رؤساء العلماء في أزمانهم وخواتيم المحققين وفحول المجتهدين في الفقه المالكي، رغم أنه لم تكن لديهم مراكز علمية ذات شهرة وإقبال كما كان القيروان للتونسيين مثلا.

المنارة للاستشارات

* معظم فقهاء المالكية الجزائريين الذين ألفوا في المذهب عاشوا بعد القرن السادس الهجري، وهي ما تسمى في تاريخ المذهب بمرحلة الاستقرار، والتي تميزت بجملة من الخصائص منها:

. توحيد المدارس المالكية وامتزاجها في بوتقة واحدة خاصة المصرية والمغربية.

. الاشتغال بالترجيح بين الاجتهادات الضخمة الموروثة من مرحلة التطور بعد الدراسة والتمحيص ووضع قواعد الترجيح.

. الميل إلى اختصار مؤلفات مرحلة التطور اختصارا علميا وليس اختصارا كميا، والمقصود بالاختصار العلمي تأليف مادة علمية كبيرة في تعبيرات موجزة دون الإخلال بالمعاني، أو ما يعرف برد الكثير إلى القليل وفي القليل معنى الكثير، وهذه المهمة تتطلب درجة عالية من الاستيعاب والحفظ والفهم للمذهب، وليست مهمة سهلة كما يظن البعض، فتم وضع المختصرات، وكان بعضها شديد التركيز حتى احتاج إلى الشرح من جديد، وهكذا دار عمل الفقهاء الجزائريين في معظمه بين المختصرات والشروح والحواشي، وإن اعتبره بعض الدارسين صورة لهرم المذهب المالكي[45]؛ فإنه كان من جهة أخرى صورة لفُتُوته من حيث تميزه بكثرة الفتوى والقضاء والنوازل وحل المشكلات وإدخال مقاصد الشريعة في قلب الإحكام الشرعية، وظهور تخصصات وأجزاء فقهية (جزئيات المسائل الفقهية) منفردة مثل كتب الأحكام والتوثيق.

* الملاحظ على مؤلفات الفقهاء الجزائريين اهتمامهم وتركيزهم على كتابين هما: مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل، معظمهم قام بعمل على أحد هذين المختصرين، بل إن منهم من قام بعملين أو أكثر على مختصر واحد، ولتفسير هذا الاهتمام بهذين المختصرين شرحا وتعليقا وحواشيا ونظما.. أكثر من غيرهما يجب التأمل فيما تميزا به:

بالنسبة لمختصر ابن الحاجب[46] واسمه الحقيقي: "جامع الأمهات" فلأنه اختصر أمهات كتب المذهب والتي بلغت ستين كتابا واحتوت نحو ست وستين ألف مسألة[47] اختصرها ابن الحاجب بجودة عالية وأسلوب جزل حسن، فأتى

المنارة للاستشارات

بالعجب العجاب، وكان مختصره كالقاموس للمذهب، فأقبل عليه الناس شرقا وغربا واهتموا به دراسة وحفظا[48]، وذكر ابن خلدون أنه انتشر في بجاية انتشارا واسعا، ومنها إلى البلدان الإفريقية الأخرى[49]، وعليه جاء اهتمام الفقهاء الجزائريين به لمبررات علمية وتعليمية هادفة، ومعايشة للواقع العلمي الذي كان من حولهم.

أما مختصر خليل[50] (مختصر لمختصر ابن الحاجب) فلأنه اعتُبر زبدة المؤلفات وآخر الخطوات في الفقه المالكي بمختلف مدارسه، وُصف بأنه أكثر الكتب صوابا، وكل ما فيه معمول به طيلة قرون عديدة، حتى صار ما فيه كالمتواتر بين الأجيال والعمدة للمذهب والفصل في القضاء، وصار كصحيح البخاري للمحدثين، استحوذ على إعجاب واهتمام معظم المالكية حتى سُمي بعض المتأثرين به بالخليليين، وكان من عادة المغاربة أن من يحفظ مختصر خليل يُحمل على الأكتاف ويُكرم تكريما خاصا، مدحه العلماء من كل مذهب[51] وتُرجم إلى لغات عديدة، فكان اهتمام المالكية الجزائريين به تبعا لاهتمامهم بمختصر ابن الحاجب أولا، ثم سيرهم على منوال جميع علماء المالكية في اعتماد هذا المختصر والعناية به منذ ظهوره إلى الآن حيث لم يزاحمه كتاب آخر في قيمته.

* عناية الفقهاء الجزائريين بمختصر ابن الحاجب الدمشقي ومختصر خليل المصري ساهمت بشكل كبير في الجمع بين المدرستين المصرية والمغاربية حتى أصبحتا مدرسة واحدة، ولا شك أن تقليل الخلاف والتباين في المذهب الواحد هو إيجابي في كثير من حالاته.

الخاتمة

في ختام هذه المداخلة أشدد على ضرورة نشر المذهب المالكي من طرف النخبة الضامنة لحسن عرضه والقادرة على إبراز أدوات الإثبات والإقناع في هذا المذهب، ومن ثم تثبيته أكثر وجمع قلوب الناس وعقولهم عليه، وأتساءل عن مكان وجود مؤلفات ومساهمات الفقهاء المالكية الجزائريين؟ لماذا انتقل بعضها إلى تونس والمغرب؟ لماذا لا تُجمع وتُحقق وتخرج إلى النور؟ ومن هنا أوصي بإنشاء مخبر للتراث

المنارة للاستشارات

الفقهي المالكي بالجزائر، تتبناه إحدى الجامعات ويعمل على تحقيق الأهداف السابقة.

والله الموفق إلى طريقه المستقيم.

- **المصادر والمراجع**:

1. إبراهيم المختار أحمد عمر الجبرتي الزيلعي، المدخل الوجيز في اصطلاحات السادة المالكية، طبعها: د عبد الله توفيق الصباغ، الأزهر الشريف، القاهرة، 1258هـ/1939م.

2. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (المتوفى : 728هـ)، مجموع الفتاوى، تح: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426 هـ/ 2005م.

3. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تعليق ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، دت.

4. أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.

5. عبد العزيز بن سعود الهويمل، التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحاق، دراسة وتحقيق، دكتوراه، إشراف د محمد الهادي أبو الأجفان، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، العربية السعودية، 1423هـ، ص 105.

6. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، ترتيب الموضوعات الفقهية ومناسباته في المذاهب الأربعة، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، ط1، 1408هـ/ 1988.

7. محمد إبراهيم علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث للدراسات الإسلامية، وإحياء التراث، دبي، الإمارات المتحدة، ط1، 1421هـ/ 2000م.

8 . محمد المختار محمد المامي، المذهب المالكي مدارسه مؤلفاته

المنارة للاستشارات

خصائصه سماته، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ط1، 1422هـ/ 2002م.

ـ الهوامش:

1 - أ. د.علي حسن عبد القادر، مدير المركز الثقافي الإسلامي بواشنطون، مقدمته لكتاب المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها لأحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، ص8.

2 - أحمد تيمور باشا، مرجع سابق، ص 67.

3 - فشا المذهب المالكي بالأندلس بسبب تمكن يحيى بن يحيى بن كثير(ت 233هـ) عند الحكم بن هشام.

4 - قلت: والمقصود بالمختصرات في هذه المرحلة هو الغربلة والتهذيب وليس بمفهوم المتأخرين وهو جمع مسائل رئيسية في كتاب من حجم صغير.

5 - نقلا عن: محمد إبراهيم علي، اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث للدراسات الإسلامية، وإحياء التراث، دبي، الإمارات المتحدة، ط1، 1421هـ/2000م، 33.

6 - المرجع نفسه، ص 35.

7 - محمد المختار محمد المامي، المذهب المالكي مدارسه مؤلفاته خصائصه سماته، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ط1، 1422هـ/2002م، ص 411 وما بعدها.

8 - لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي وتعرف بالعتبية، ورغم ما فيها من روايات شاذة فقد وقع عليها الاعتماد من طرف علماء المالكية.

9 - لمحمد بن إبراهيم الإسكندري ابن مواز، وهو من أجل الكتب التي ألفها المالكية.

10 - الواضحة في السنن والفقه لعبد الملك بن حبيب السلمي.

11 - الماجريات من المسائل المختلف فيها بين المحققين، ولأبي الوليد الباجي كتاب في هذا الشأن سماه فصول الأحكام، وانظر لهذه المصطلحات: إبراهيم المختار أحمد عمر الجبرتي الزيلعي، المدخل الوجيز في اصطلاحات السادة المالكية، طبعها: د عبد الله توفيق الصباغ، الأزهر الشريف، القاهرة، 1258هـ/1939 م، ص7 وما بعدها.

12 - للتفصيل في هذه المسألة: اصطلاح المذهب عند المالكية، مرجع سابق، ص 397.

13 - ينظر: عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، ترتيب الموضوعات الفقهية ومناسباته في المذاهب الأربعة، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، ط1، 1408هـ/ 1988، ص 43 وما بعدها.

14 - نقلا عن اصطلاح المذهب، مرجع سابق، ص 27.

المنارة للاستشارات

15 - المرجع نفسه، ص 28.

16 - ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (المتوفى : 728هـ)، مجموع الفتاوى، تح: أنور الباز و عامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426 هـ/2005 م، (294/20).

17 - نسبة إلى عبد الله بن ميمون القداح، بدأ حكم العبيديين في المغرب عام 296 هـ ثم فتحوا مصر عام 358 ثم فتحوا بلاد الشام فأصبحوا أكبر قوة في العالم الإسلامي، ويسمون بالفاطميين، كانوا شيعة متعصبين، وقيل خرج منهم القرامطة.

18 - ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تعليق ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، دت، ص104 رقم 521، قال الألباني: ضعيف.

19 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 73.

20 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 97.

21 - بزعامة إبراهيم بن الأغلب والي الدولة العباسية على افريقية سنة 184هـ، حتى سقطت على يد العبيديين سنة 296.

22 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 108.

23 - بقيادة المهدي بن تومرت سنة 515هـ، سقطت سنة 603هـ

24 - نقلا عن اصطلاح المذهب، مرجع سابق، ص 61.

25 - المرجع نفسه، ص 199.

26 - علي حسن عبد القادر، مقدمة كتاب المذاهب الفقهية الأربعة وانتشارها لأحمد تيمور باشا، ص6.

27 - نقلا عن: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 100.

28 - يرده قول الإمام ناصر الدين اللقاني(ت958هـ) متسائلا: "نحن ناس خليليون إن ضل ضللنا؟، توشيح الديباج، نقلا عن المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، ص 106.

29 - المدخل الوجيز لاصطلاح مذهب مالك، ص 12.

30 - المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، ص 123.

31 - اصطلاح المذهب عند المالكية، ص 421.

32 - المرجع نفسه، ص 431.

33 - المرجع نفسه، ص 433.

34 - المرجع نفسه، ص 448.

35 - المرجع نفسه، ص 468.

المنارة للاستشارات

36 - المرجع نفسه، ص 473.

37 - المرجع نفسه، ص 476.

38 - المرجع نفسه، ص 478.

39 - المرجع نفسه، ص 480.

40 - المرجع نفسه، ص 489.

41 - المرجع نفسه، ص 507.

42 - المرجع نفسه، ص 517.

43 - المرجع نفسه، ص 528.

44 - المرجع نفسه، ص 530.

45 - ومن السلبيات التي ذُكرت لهذه المرحلة: انقطاع التلقي بالسماع وذهاب الإسناد، وكثرة الاعتماد على الكتب مما أدى إلى ظهور التعصب والتصحيف.

46 - هو: عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب، صاحب العلوم والفنون، من كتبه: جامع الأمهات في الفقه والمنتهى الأصولي.. نشأ في دمشق وتوفي بالإسكندرية سنة 646هـ.

47 - اصطلاح المذهب، ص406.

48 - اعتنى به المالكية وغيرهم، ولابن حجر الشافعي كتاب: موافقة الخبر في تخريج أحاديث المختصر لابن الحاجب.

49 - اصطلاح المذهب، ص 407.

50 - هو خليل بن إسحاق بن موسى المعروف بالجنيدي، صدر علماء القاهرة، من أهل التحقيق وتعدد الفنون، توفي سنة 767هـ.

51 - قال محمد الفارضي الحنبلي:

أطلاب علم الفقه مختصر الرضى *** خليل لكم فيه الحياة فعيشوا

ولله بيت ضمِنوه مديحه *** به يهتدي من في الأنام يطيش

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها *** خليل بن إسحاق الإمام يعيش

ينظر: عبد العزيز بن سعود الهويمل، التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحاق، دراسة وتحقيق، دكتوراه، إشراف: د محمد الهادي أبو الأجفان، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، العربية السعودية، 1423هـ، ص 105.

المنارة للاستشارات